ترجمة الإمام ابن حجر مؤلف الجوهر المنظم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذه نبذة يسيرة من ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي مؤلف كتاب ((الجوهر المنظم في زيارة قبر النبي المعظم))

اسمه ونسبه

وهو كما في مقدمة ((الفتاوي الفقهية)) لبعض تلاميذه: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بدر الدين بن محمد شمس الدين بن على نور الدين بن حجر وسمي جده بحجر لأنه كان ملازما للصمت لا يتكلم إلا لضرورة ، فلذلك شبهوه بحجر ملقى لا ينطق ، فقالوا ((حجر)) ثم اشتهر بذلك، رواه شيخنا المترجم له وقد جاوز مائة وعشرين سنة وآمن الخرف وكان له في هذا السن عبادات خارقة ، والهتمي نسة إلى محلة أبي الهيتم بالتاء المثناة قرية بمصر ، وفي فهرس الفهارس أن الهيتمي نسبة إلى محلة ابن الهيثم بالثاء المثلثة فغيرها العامة وقال بعضهم هو أحمد بن محمد بن على بن حجر .

وفي تاريخ ((النور السافر على أخبار القرن العاشر)) تأليف الشيخ محيي الدين عبد القادر بن عبد الله العيدروس ص (287) أن الشيخ شهاب الدين أبا العباس أحمد بن محمد بن على بن حجر الهيتمي : كان حافظا شيخ الإسلام خاتمة أهل الفتيا والتدريس ناشر علوم الإمام محمد بن إدريس الشافعي وكان إمام الحرمين كما اجتمع على ذلك العارفون وبحرا في علم الفقه وتحقيقه لا تدكره الدلاء ، وكان أوحد العصر وثاني القطر ، وثالث الشمس والبدر ، من أقسمت المشكلات أن لا تتضح إلا لديه انتهى

مولده

ولد الشيخ ابن حجر رحمه الله سنة تسع وتسعمائة و لم نعلم لذلك خلافا إلى ما في فهرس الفهارس فإنه قال فيه : ولد سنة ثمانمائة وتسعة وتسعين ولعله تحريف من النساخ.

مشايخه في العلم

ومن مشايخه الذين أخذ عنهم: شيخ الإسلام ابو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي والشيخ المعمر الزين عبد الحق السنباطي والشمس السمهودي والشهاب الرملي والشمس الدلجي

مشايخه في التصوف

واعلم أن الشيخ ابن حجر كان يحب الصوفية ويناضل عنهم وقال في ((الفتاوي الحديثية)) إني ربيت في حجور بعض أهل هذه الطائفة – أعني القوم السالمين من المحذور واللوم- فوقر عندي كلامهم لأنه صادف قلبا خاليا فتمكن. بل ذكر في فهرس الفهارس أنه كان معدودا من الصوفية، فمن مشايخه في التصوف العبادي والطحان وأبو الحسن البكري الشمس ابن أبي الحمائل وغيرهم

طلبه للعلم

و((في النور السافر)) ص 287 تأليف الشيخ محيي الدين عبد القادر بن عبد الله العيدروس : مات والد الشيخ المترجم له وهو صغير فكفله الإمامان الكاملان علما وعملا العارف بالله شمس الدين ابن أبي الحمائل وشمس الدين الشناوي، ثم إن الشمس الشناوي نقله من بلده أبي الهيتم إلى مقام القطب الشريف سيدي أحمد البدوي نفع الله به، فقرأ به في مبادئ العلوم ، ثم نقله في سنة أربع وعشرين وسنه نحو (14) سنة إلى الجامع الأزهر مسلما له إلى رجل صالح فحفظه حفظا بليغا وجمعه بعلماء مصر فأخذ عنهم، وكان قد حفظ القرآن العظيم في صغره. فبرع في علوم كثيرة من التفسير والحديث وعلم الكلام وأصول الفقه وفروعه والفرائض والحساب والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والتصوف، ومن محفوظاته في الفقه المنهاج للنووي.

وقال رحمه الله في معجم مشايخ : كنت ملازما في تحصيل العلوم الآلية والعلوم العقلية والقوانين الشرعية لا سيما علم الفقه وأصله تفريعا وتأصيلا إلى أن فتح الكريم من تلك الأبواب ما فتح ووهب ما وهب ومنح وتفضل بما لم يكن في الحسبان حتى أجازني أكابر أساتذتي بإقراء تلك العلوم وإفادتها ، وبالتصدي لتحرير المشكل منها بالتقرير والكتابة ثم بالإفتاء والتدريس على مذهب الإمام الشافعي ثم بالتصنيف والتأليف، فكتبت من المتون والشروح ما تغني رؤيته على الإطناب في مدحه، كل ذلك وسني دون العشرين بحلول نظرة جماعة عليّ من العارفين أولى التصرف والشهود التمكين وأرباب الإمداد الوافر وكنوز الإسعاف والإسعاد الباهر ، ثم جردت صارم عزمي وأرهفت حد فهمي في خدمة السنة المطهرة بإقراء علومها وإفادة رسومها لا سيما بعد الإتيان إلى حرم الله تعالى

واستيطان بلده والتفرغ لإسماع المقيمين والواردين حيازة لنشر العلم ساطعا فوق رؤوس الأشهاد ليعلم الحاضر والبادي أن من يبيع نفسه لمولاها يقطعها عن سائر الأغراف إلى حيازة العلوم مناديا في كل مجمع وناد عباد الله هلموا إلى شرف الدينا والآخر فإن لا طريق أقرب في الوصول إلى الله من العلوم الشرعية المنـــزهة من أن يشوبها أدنى شوب من المطامع الدنيوية ومن ثم قال أئمة الفقه والعرفان كالإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان إن لم يكن العلماء اولياء فليس لله ولي في زمن من الأزمان ، لكنهم لم يريدوا صور العلم بل حقائق تطهير القلوب ثم ملأها من معارف القوم دون شقاشق أهل الرسوم، وكما أن للصوفية سياحات لا بد منها كذلك لأئمة السنة حالات لا يستغني أكثرهم عنها، وشتان ما بينهما لأن نفع تلك قاصرة على أهلها وهذه عامة النفع والإحسان ، ولذا دعا لهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ((نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)) ومعه هذا العلو الشامخ والشرف الراسخ تقهقر الزمان فركدت الهمم لا سيما عن هذا العلم العلي الشأن حتى كاد أن يكون نسيا منسيا ولهذا كان الناس بعد أن فقدت الرحلة في طلب الإسناد إلى شاسع الأقطار يطلبون الإجازة بالاستدعاء بالكتابة من الأساتذة البعداء الديار ، وأما الآن فقد تقاعدت عنه الهمم إلى الغاية ، فأخلدت إلى أرض شهواتها عن طلب الدراية والرواية وذهب المسندون الجلة ، ومن كانت تزدهي بوجوهه الملة

شعر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس و لم يسمر بمكة سامر

لكن بحمد الله قد بقي من آثارهم بقايا ، وفي زوايا الزمان ممن تحمل عنهم خبايا وأنا أرجو إن شاء الله أن أكون من متبعيهم بحق ، وواريثيهم بصدق لأني أخذته رواية وأتقنته دراية عن الأئمة المسندين ممن يضيق المقام عن استيعابهم، ويجب الاقتصار على مسانيد أشهر مشاهيرهم شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي ثم شيخنا عبد الحق السنباطي، ثم شيخ مشايخنا بالإجازة الخاصة وشيخنا بالإجازة العامة لأن أجاز لمن أدرك حياته وإني ولدت قبل وفاته بثلاث سنين فكنت ممن شملته إجازته واشتملته عنايته حافظ عصره باتفاق أهل مصره الجلال السيوطي إنتهى ما نقلته عن النور السافر عن أخبار القرن العاشر باختصار وتصرف يسير

ما لقي من الأذى أيام طلبه للعلم وبعدها

وفي مقدمة ((إعانة الطالبين حاشية فتح المعين)) ج 1/ 18 وفي مقدمة الفتاوي الفقهية ج 1ص 5 أن الشيخ ابن حجر الهيتمي كان يقول : قاسيت في الجامع الأزهر من الجوع ما لا تحتمله الجبلة البشرية لولا معونة الله وتوفيقه بحيث إني جلست فيه نحو أربع سنين ما ذقت اللحم إلا في ليلة دعينا لأكل فإذا هو لحم يوقد عليه ثم جيئ فإذا هو لحم يابس كما نيئ فلم استطع منه لقمة ، وقاسيت أيضا من الإيذاء من بعض أهل الدروس التي كنا نحضرها ما هو أشد من ذلك الجوع إلى أن رأيت شيخنا ابن أبي الحمائل قائما بين يدي سيدي أحمد البدوي فجيء باثنين كانا أكثر إيذاء لي فضربهما بين يديه ومزقا كل ممزق ، وكذلك أوذي بمكة كثيرا فصبر فكفاه الله شر المؤذين ومن كلامه رحمه الله :

إذا أنت لا ترضى بأدنى معيشة مع الجد في نيل العلا والمآثر

فبادر إلى كسب الغنى مترقبا عظيم الرزايا وانطماس البصائر

وفي مقدمة ((الفتاوي الفقهية)) أيضا أن الشيخ حج هو وشيخ الإمام البكري في آخر سنة تسعمائة وثلاث وثلاثين وجاور سنة تسعمائة وأربع وثلاثين وخطر له أن يؤلفي في الفقه فتوقف إلى أن رأى الحرث بن أسد المحاسبي وهو يأمره بالتأليف فاستبشر وألف قال: وأذركني ذلك ما كنت رأيته أيام الطلب فإني رأيت امرأة في غاية الجمال كشفت لي عن أسفل بطنها وقال اكتب على هذا متنا بالأحمر وشرحا بالأسود ، ثم انتبهت ففزعت حتى قيل لي في تفسيره: ستظهر مؤلفاتك في الدينا بعد خفائها ظهورا عظيما .

ولما رجع من مكة اختصر متن الروضة وشرحه شرحا مستوعبا لما في شرح الروضة وللجواهر وكثير من شروح المنهاج والأنوار ، ثم حج بعياله هو وهو شيخ المذكور آخر سنة سبع وثلاثين ومعه شرح المختصر المذكور فجاور سنة ثمانية وثلاثين وألحق في هذا الشرح من كتب اليمن وغيرهم شيئا كثيرا ، فرآه بعض علماء الأعاجم فأعطى مبلغا كثيرا لكتابته إذا وصلوا مصره فلما وصلوها أريد استنساخه له فحسده بعض حاسديه فترصدوا له إلى أن أخرج الكتاب ليكشف منه ثم اشتغل ثم التفت إليه فلم يره فكأن ما وقع في بئر أو أحرق لوقته فلم يظهر له خبر حتى أصابه بسبب ذلك علة خطيرة لا زالت تلازمه إلى

إن كادت تزهق نفسه ، ثم تعافى منها ولله الحمد ثم صبر واحتسب فعوضه الله خيرا من ذلك انتهى

تآليفه

اعلم أن للمترجم له تصانيف كثيرة في مختلف الفنون وأنواع العلوم وبقد بلغت زهاء ثمانين تصنيفا فمنها تحفة المنهاج بشرح المنهاج للإمام النووي وفتح الجواد بشرح الإرشاد، وفتح المبين في شرح الأربعين النووية، وأنفع شروحها وأبسطها في علمت ، وشرح مختصر الفقيه عبد الله بافضل المسمى بـــ(المنهج القويم) ، والزواجر عن اقتراف الكبار وهو نفيس لم يؤلف مثله في بابه فيما أعلم ولا يستغني عنه من يهتم في أمور آخرته ، وكف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع والإعلام في قواطع الإسلام ، وينبغي لكل من يعتني بحراسة إيمانه أن يكون عنده ،والفتاوي الحديثية، والفتاوي الفقهية الكبرى، وحاشية على الإيضاح للنووي ، والخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفةالنعمان والجوهر المنظم في زيارة قبر النبي المعظم – وهو الكتاب الذي بين أيدينا – والمنح المكية بشرح الهمزية البوصيرية ، والصواقع المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، وهذه الكتب كلها عندي ما عدا الأخيرين منها فإني رأيتهما وطالعتهما وليسا عندي الآن ، وله أيضا شرح المشكاة المسمى بفتح الإله ، وشرح الإرشاد الكبير المسمى بـــ (الإمداد) ، وشرح الشمائل المحمدية للترمذي ، وشرح العباب المسمى (بالإيعاب) ، وشرح مختصر أبي الحسن البكري في الفقه وشرخ مختصر الروضة لم يتم وحاشية لم تكمل على شرح المنهاج، وحاشية العباب ، واختصر الإيضاح، والإرشاد والروضة ، والأخير لم يتم ، وجمر الغضى لمن تولى القضا ، والتعرف في الأصلين والتصوف، والأربعون حديثا في العدل الأربعون في الجهاد ، والمولد النبوي ، وجزء في العمامة النبوية ، وجزء فيما ورد في المهدي، وشرح قطعة صالحة من ألفية ابن مالك وشرح عقيدة الشيخ على بن عراق الكناني، والدرر الزاهرة في كشف أمور الآخرة، ومبلغ الأرب في فضائل العرب، وتحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدبو الأطفال ، ومعدن اليواقيت في مناقب الأئمة الأربعة ، أو خلاصة الأئمة الأربعة، ومنظمة في أصول الدين وغيرها.

شعره

لقد ذكرنا قريبا أن له منظومة في أصول الدين غير أننا لم نقف له على أشعار كثيرة ولكن تنسب إليه قصيدة في المدح على النبي صلى الله عليه وسلم من بحر الوافر مطلعها:

صلاة الله على الهادي الشفيع محمد الحبيب هو الرسول

تواترد الأدلة والنقول فما يحصي المصنف ما يقول

بأن المصطفى حي طري هلال ليس يطرقه أفول

وأن الدود لا تأتي إليه كذا الآفات ليس لها وصول

وفي آواخرها

عبيد هيتمي مستجير لمن حطت بساحته الحمول

يستجير برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تحط بساحته الأوزار المحمولة عن زوار حضرته الشريفة فإن الحمول جمع حمل بالكسر وهو – كما في المصباح ما يحمل على الظهر ونحوه

أخلاقه

كان رحمه الله يصدع بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم ، ولا سطوة صائل ، ولا بطشة سلطان جائر ، ولا مكر مبتدع مارق ، فكان على المجسمة والمشبهة والشيعة سهما صائبا ، وسيفا قاطعا ، فألف في الرد عليهم ، وحذر الناس على ضلالتهم وأباطيلهم ، وكان لا يحابي أحدا بل يدور مع الحق حيث دار ، حتى إنه كان لا يهاب في ذلك عن مشايخه فقد قال رحمه الله في الفتاوي الحديثية ما حاصله : - إني إنما ربيت في حجرة هذه الطائفة – يعني الصوفية- فوقر عندي كلامهم لأنه صادف قلبا خاليا فتمكن ، لما قرأت في العلوم الظاهرة وسني نحو أربعة عشرة سنة قرأت مختصر أبي شجاع على شيخنا أبي عبد الله الإمام المجمع على بركته وتنسكه وعلمه والشيخ محمد الجوني بالجامع الأزهر بمصر المحروسة فلازمته مدة ، وكان عنده عدة فانجر الكلام في مجلسه يوما إلى ذكر القطب والنجباء والنقباء والأبدال وغيرهم فبادر الشيخ إلى إنكار ذلك بغلظة ، وقال هذا كله لا حقيقة له فليس فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت له وكنت أصغر الحاضرين معاذ الله بل هذا صدق وحق لا مرية فيه ، لأن أولياء الله أخبروا به وحاشاهم

من الكذب ، وممن نقل ذلك الإمام اليافعي وهو رجل جمع بين العلوم الظاهرة والباطنة فزاد إنكار الشيخ وإغلاظه عليّ فلم يسع لي الا السكوت فسكت وأضمرت في أنه لا ينصرني إلا شيخنا شيخ الإسلام وإمام الفقهاء والعارفين ابو يحيى زكريا الأنصاري وكان من عادتي أن أقود الشيخ محمدا الجويني لأنه كان ضريرا وأذهب أنا وهو إلى شيخنا زكريا الأنصاري نسلم عليه ، فذهبت أنا والشيخ محمد الجويني إلى شيخ الإسلام زكريا فلما قربنا من محله قلت للشيخ لا بأس أن أذكر لشيخ الإسلام مسألة القطب ومن دونه وننظر ما عنده فيها فلما وصلنا إليه أقبل على الشيخ الجويني وبالغ في إكرامه وسؤال الدعاء منه ثم دعا شيخ الإسلام لي بدعوات منها ((اللهم فقهه في الدين)) ، وكان كثيرا ما يدعو لي بذلك ، فلما تم كلام الشيخ ، وأراد الجويني الانصراف قلت لشيخ الإسلام يا سيدي القطب والأوتاد والنجباء والأبدال وغيرهم ممن يذكره الصوفية هل هم موجودون حقيقة؟ فقال نعم والله يا ولدي فقلت له يا سيدي إن الشيخ – وأشرت إلى الشيخ الجويني – ينكر ذلك ويبالغ في الرد على من ذكره فقال شيخ الإسلام هكذا يا شيخ محمد؟ وكرر عليه حتى قال له الشيخ محمد يا مولانا شيخ الإسلام آمنت بذلك وصدقت به وقد تبت، فقال هذا هو الظن بك يا شيخ محمد ثم قمنا و لم يعاتبني الشيخ على ما صدر مني ، ثم قال رحمه الله: ونظير هذه الوقعة – من بعض وجهها- ما وقع لي وعمري ثمانية عشر سنة مع بعض مشايخنا وهو شيخ الإسلام الدلجي وكان قد أعطي في العلوم الشرعية والعقلية من متانة التصنيف وقوة السبك ما يعطه أحد في زمانه ، كنا نقرأ عليه ذات يوم في شرح التلخيص للسعد التفتازاني وفي كتاب صنفه الشيخ في أصول الدين فوقع ذكر العارف بالله عمر بن الفارض رضي الله عنه في المجلس ، فبادر الشيخ وقال : قاتله الله ما أكفره ، كيف وكلامه ينطق بالحلول والاتحاد ، وأما شعره في الذروة العليا، فقلت له من بين الحاضرين حاشاه من الكفر والحلول والاتحاد ، فأغلظ الشيخ الإنكار عليّ وعليه فأغلظت في جوابه وكان بالشيخ مرض بضيق النفس وكان قد أخبرنا أنه له مدة مديدة لا يقدر على وضع جنبه عل الارض ليلا ولا نهارا وقلت له يا سيدي أنا التزم لك أنك إن رجعت من إنكارك على الشيخ عمر الفارض وابن عربي وتابعيهما برئت من هذا الداء العضال ، فقال هذا لا يصح فقلت صدقو قولي بالرجوع عن ذلك مدة يسيرة فإن ذهب وإلا فأنتم

تعرفون ما ترجعون إليه فقال : يمكن أن نجرب ثم أظهر لنا الرجوع والتوبة ، فانصلح حاله وخف مرضه مدة مديدة ، وكنت أقول له يا سيدي صحت ضمانتي فيضحك ويعجبه ذلك ، وفي المدة ما سمعنا منه عن هذ الطائفة إلا خيرا ثم عاد فعاد له بعد ذلك المرض بأشد ما كان وأتعبه أضيق ألم ذلك المرض واستمر يشتد عليه بعد ذلك نحو عشرين سنة حتى مات وهو على حاله إهـــ من الفتاوي الحديثية ص 325 ومما يدل على تمسكه الشديد بالحق وعلى أنه لا يعبأ في ذلك أحدا وإن جلت عنده رتبته أو كان أحب الناس إليه ما اشتهر عنه من مخالفته في بعض المسائل الفقهية أكبر مشايخ شيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري وكان الهيتمي ممن يحب العارف بالله ابن عربي الحاتمي وينصره ويدافعه عن الطاعنين فيه ومن هذا خالفه في مسألة صحة إسلام فرعون ، واستدل على موته كافرا بثلاثة أحاديث وصرح بأنه لا يدخل في الإسلام بقوله ((آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائل وأنا من المسملين)) لأن ذلك كان حالة اليأس من الحياة وقد قال الله تعالى ((فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)) ولأنه لا يقر برسالة رسوله موسى صلى الله علي نبينا وعليه وسلم

غريبة

قال العلامة المحقق عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني في فهرس الفهارس ص 338 للشيخ ابن حجر معجم مشهور في مجلد وسط وذكر فيه إجازاة مشايخ والكتب التي أجازوه بها ، وقفت على نسخة منه بخط حفيده الشيخ رضي الدين ابن عبد الرحمن بن أحمد بن حجر المذكور، ونقلت منه: واعلم أن شيخنا العارف بالله ابن أبي الحمائل : كان يذكر أنه اجتمع بجني تابعي من أصحاب بعض الجنة من الصحابة الذين اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأقرأهم بعض القرآن ، وكان شيخنا – يعني ابن أبي الحمائل يقول لم يعتني به من أصحابه : أجزتك بما أجازني به فلان الجني التابعي بما أجازه به شيخ فلان الجني الصحابي، كذا تلقينا عنه . وهذا وإن لم يثبت به حكم عند المحدثين لكن يتبرك به من مثل هذا العارف.وإذا تقرر التبرك فقد أجزت مولانا المنوه به بذلك ليتبرك بذلك أيضا فإن الظن هنا بل العلم ناطق بصدق الشيخ في ذلك ، فإنه مما ينبغي أن يحرص عليه إهـــ منه

تنبيه

سمعت من بعض العلماء أن الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي لم يعقب ولم يترك بعده أولادا قالوا : ذلك من إصابة دعوة صوفي دعا عليه لما اختلفا في مسألة فقهية ، وكان ذلك في الحرم المكي المشرف ، وقد ذكرنا قريبا أن العلامة عبد الحي الكتاني نقل من خط حفيده الشيخ رضي الدين ابن عبد الرحمن بن أحمد بن حجر ، وهذا يدل أنه له ولدا اسمه عبد الرحمن ، وفي فهرس الفهارس أيضا ما نصه: للشهاب ابن حجر المترجم له ولد كان من أهل العلم اسمه محمد ، وكنيته أبو الخير ، أخذ عنه بعض اليمنيين (نظر ترجمة أحمد صاحب الخال من خلاصة الأثر) ووجدت أبي الخير المذكور في ريحانة الخفاجي إهـــ

أقوال العلماء فيه

قال الشيخ محمد على الشوكاني في البدر الطالع ج 1 ص 109 وكان زاهدا متقللا على طريقة السلف آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر واستمر على ذلك حتى مات

وقال فيه تلميذه الشهاب الخفاجي في (ريحانة الألباء) كان شيخنا – يعني الهيتمي- علامة الدهر خصوصا في الحجاز ، فكم حجت وفود الفضلاء لكعبته ، وتوجهت وجوه الطلب إلى قبلته، إن حدث عن الفقه والحديث لم تتقرط الآذان بمثل أخباره في القديم والحديث إهـــ وقال بعض تلاميذه كما في مقدمة الفتاوي الفقهية : لما اتخذ مكة وطنا وآثرها سكنا انتشر صيبته في الآفاق ، ووقع على سعة العلم وصحة استنباطه وباهر فهمه الاتفاق ، فقصده الأئمة وغيرهم بالفتاوي من سائر الأقاليم المشهورة لما اشتهر من حديث فضله عندهم من كل طريق صحيحة مأثورة ، كمصر والشام وحلب وبلاد الأكراد والعراق والبصرة ونجد والبحرين واليمن والسواحل وبر العجم وحضرموت والهند وغير ذلك لا سيما القادمين الى الحج من البلاد الشاسعة

وبالجملة كان رحمه الله غرة عصره وبهجة أوانه وفخر زمانه علما وعملا وصلاحا، وقد جمع الله فيه من العلوم والفنون والمعارف ما لم يجتمع في أحد من أقرانه بل لو قيل لم تر عين مثله من زمانه إلى عصرنا هذا لم يستبعد ذلك من تتبع أحواله وعرف ما أعطاه الله من فضله ونواله فقد كان إمام الفقهاء وسيدهم ويشهد بذلك تصانيفه وبلغ من علم الحديث رواية ودراية مرتبة عالية ودرجة رفيعة ، بل صرح الشيخ عبد القادر بن الشيخ

عبد الله العيدروس في (النور السافر) أنه كان حافظا قلت: ويعترف له بذلك كل من رأى تصانيفه الحديثية – كالزواجر عن اقتراف الكبار – والفتاوي الحديثية- وشرح المشكاة- وشرح الشمائل المحمدية- وغيرها، وله الباع الطويل والعدم الراسخ في التفسير وعلم الكلام وأصول الفقه والفرائض والحساب والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والتصوف وكان يحب الصالحين والصوفية ويناضل عنهم ويعتقد فيهم اعتقادا عظيما ويؤول ما صدر عنهم مما قد يخالف الشرع ويحمل محامل حسنة ، وقال في الفتاوي الحديثية : ما تعبد متعبد باكثر من التحبب إلى أولياء الله تعالى، وقال : إنا نعتقدهم ونحبهم – يعني الصوفية – ومن أحب قوما حشر معهم حقق الله لنا الدخول في أعدادهم في الدينا والآخرة، وقال في موضع آخر منه : نسأل الله أن يحشرنا تحت مواطئ اقدام هؤلاء الأئمة الأكابر الأخيار بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال أيضا لقد تواتر وشاع وذاع أن من أنكر على هذه الطائفة لا ينفع الله بعلمه ويبتليه فأفحش الامراض وأقبحها ، وقد جربنا ذلك في كثير من المنكرين كالبقاعي وغيره ، وهذا إذا كان قصده في محض التعصب والحسد وحب إبداء خلاف أهل العصر ونحو ذلك من الأغراض الفاسدة التي لم يصحبها نوع إخلاص ، بخلاف ما إذا كان قصدهم بإنكارهم محض النصيحة للمسلمين وزجر هؤلاء الجهلة المتصوفة الذين يشتغلون بمطالعة كتب ابن عربي وأتباعه من خلوهم عن العلوم الرسمية والأحوال الكشفية واتصافهم بالجهل المحض ويتخذونها ديدنا حتى يفهموا منها غير المراد وهؤلاء الكفر أقرب إليهم من الإسلام ولقد شاهدنا منهم جماعة يأكلون في رمضان ويفعلون ما هو أقبح من ذلك ويقولون هذه التحليلات والتحريمات إنما يخاطب بها المحجبون عن الله كهؤلاء الفقهاء المنكرين وشاهدت تلهيهم مطالعة كتب ابن عربي عن الجماعة وأداء الفرائض في أوقاتها فهؤلاء لا يمتري في سفههم وجهلم ويجب زجرهم عن مطالعة كتب الشيخ ابن عربي لا لنقص فيها بل لنقص في هؤلاء ولقد قال قدس الله سره نحن قوم تحرم المطالعة في كتبنا إلا لعارف باصطلاحنا فانظر كيف صرح الشيخ بتحريم المطالعة على هؤلاء الجهلة المغرورين المستهزئين بالدين فالمنكرون إن قصدوا بالإنكار المبالغة في زجر مثل هؤلاء فلا حرج عليهم ، وهم في مأمن من الشيخ وأتباعه لانهم ساعون في غرض الشيخ من عدم مطالعة هؤلاء كتبه، فمن انتشر علمه بين المنكرين

علمنا أنه لم يكن من القسم الأول ، بل من القسم الثاني ، لكن التسليم وعدم الإنكار على أمثال ابن عربي أسلم إهـ من الفتاوي الحديثية بمعناه مع اختصار، وفي هذا الكتاب علوم كثيرة من فنون عديدة ينبغي الاهتمام بها لطالي العلم عموما وللمحدثين والفقهاء خصوصا وقد علمت مما ذكرنا أن ابن حجر الهيتمي كان من العلماء الفقهاء الحفاظ المائلين إلى الصوفية المحبين لهم المعتقدين فيهم اعتقادا حسنا آخذين بإشاراتهم الذين يتبركون بمجالستهم ومقاربتهم والتماس دعواتهم والتخلق بأخلاقهم الحميدة والتمسك بأذالهم والتعرض لأمدادهم ونفحاتهم بل صرح المحقق عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني في فهرس الفهارس أنه كان من الصوفية قدس الله أسرارهم ونفعنا بعلومهم آمين حيث وصفه في ص 338 من الكتاب المذكور بأنه الفقيه المحدث الصوفي توفي رحمه بمكة المكرمة في رجب سنة 974 ودفن بالمعلاة ، وفي شذرات الذهب أنه توفي سنة 973هـ وفي فهرس الفهارس وما يفهم من عبارة صاحب خلاصة الأثر من أن وفاته سنة 990 هـ غلط، وما في فهرس الدمنتي من أنه مات في 3 رجب 964 غلط.

ملاحظة

قد ذكرنا ترجمة الإمام ابن حجر الهيتمي وأحببنا أن نذكر هنا بإيجاز نسب وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي يتفق مع العلامة المترجم له في الاسم واللقب والعقيدة والمذهب.

هو شيخ الإسلام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن محمود بن أحمد الكناني الأشعري الشافعي قاضي القضاة ولد سنة 773هـ وتوفي سنة 852 وكان يلقب بأمير المؤمنين في الحديث وهو مؤلف (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

قد كان كل منهما محدثا فقيها اشتهر الحافظ ابن حجر بالحديث كما اشتهر الهيتمي بالفقه قال الشيخ عبد القادر بن عبد الله العيدروس في (النور السافر) : كاد الهيتمي يشبه الحافظ ابن حجر في فنه الذي اشتهر به وهو الحديث مع ما منحه الله له من الزيادة عليه في الفقه ، كيف وهو سميه فأشبه اسما ووصفا وزادته نسبته إلى جوار الحرم الشريف شرفا، وقد كنت نثرت فيه قديما فقلت ابن حجر في البشر كالياقوت في الحجر.